



عدد 37

ملف العدد

الشعر المغربي المعاصر

الهوامش:

1 - يثير مفهوم التخييل الذاتي جدلا واسعا حول هويته الجنسية وأبعاده الفكرية والأدبية. وغالبا ما تتأرجح التعريفات الممنوحة له بين المعنيين الحصري والعام. يتزعم سيرج دبروفسكي الفئة الأولى المدافعة عن المعنى الحصري الذي يختزل في **الهويتيْن الاسمية والجنسية**. وإليه يرجع الفضل في نحت المفهوم وإثباته على ظهر روايته (الابن/ الخيوط*Fils*) التي صدرت عام 1977 (بعد استشارته آثرنا ترجمة العنوان بلفظين مختلفين. فهو تقصد، بنزوعه إلى البديع واللعب بالألفاظ، أن يوحي، في الآن نفسه، بعلاقة السارد بأمه وبتشابك خيوط الحكي). وتدعم الفئة الثانية التي يقودها فانسون كلولنا Vincent Colonna أطروحة «**إضفاء التخييل على الذات**» وإن كانت تتفق مع الفئة الأولى في بعض السمات.

2 - سبق لفليب لوجون أن حاول ملء خانة فارغة في جدوله الشهير الذي سعى، من خلاله، إلى استيعاب جميع الهويات السردية الممكنة. «هل يمكن لبطل الرواية أن يكون له نفس اسم الكاتب؟ لا مانع من إيجاد حالة من هذا النوع. وهي تجسيد لتناقض داخلي يمكن أن يفضي إلى نتائج هامة. لكنني لم أستحضر، وقتئذ، أي مثال يمكن أن ينطبق على هذه الحالة».

Philippe lejeune, *Le pacte autobiographique*, Paris , éd. du Seuil,1975 , coll « Poétique » ; rééd. Coll. « Points Essais »,1996 ,p31.

3 -راسل سيرج دبروفسكي فليب لوجون لما كان منهمكا في كتابة روايته*Monstre* (قبل أن يستقر على عنوان *Fils*»الابن/ الخيوط») لإثارة معه موضوع الخانة الفارغة التي تهم إمكانية اضطلاع شخصية تحمل اسم الكاتب بأداء دور روائي. «أتذكر لما قرأت دراستكم في مجلة «الشعرية» أنني وسمت المقطع (...) كنت منكبا على تدوين روايتي، وهذا ما أثارني بشكل كبير. وإن كنت، لحد الآن، غير متأكد من المنزلة النظرية لمشروعي. أصررت على ملء الخانة التي تركتموها شاغرة في تحليلكم..إنها رغبة حقيقية أسهمت فجأة في توطيد الصلة بين نصكم النقدي وما كنت منهمكا في كتابته». رسالة مؤرخة في 17 أكتوبر عام 1977. استشهد بها فليب لوجون في كتابه «أنا أيضا» 1986، أخذناها من كتاب هام يؤرخ للتخييل الذاتي ويعرف بمختلف مراحله وتوجهاته:

Philippe Gasparini Autofiction Une aventure du langage, Seuil,2008,p13.

4 -توحي هذه العبارة بعبارة رولاند بارث الشهيرة «أثر الواقعEffet du réel». ويقصد بها الأخصائيون في الكتابة عن الذات ما يتضمنه أي عمل تخييلي من إشارات وإيحاءات تحيل إلى تجربة الكاتب في الحياة.

الحصري الذي اقترحه سيرج دبروفسكي Serge Doubrovsky لملء الخانة الفارغة المستغلقة على فهم فليب لوجونPh Lejeune بحكم عدم إيجاد مثال مناسب لتعليلها([2]). يشترط سيرج دبروفسكي([3]) في التخييل الذاتي توفره، علاوة على سمات أخرى، على خاصيتين جوهريتين، وهما الهوية الاسمية (أن تحمل الشخصية الخيالية إسم الكاتب) والهوية الجنسية Identité générique (إدراج العمل في خانة الرواية). تتوفر الرواية على الخاصيتين معا وهو ما يجعلها أقرب إلى التعريف الحصري لسيرج دوبروفسكي. حرص السارد على إدراج مشروعه ضمن خانة الرواية مبرما عقدا تخييليا مع القارئ، مفاده أن ما يُحكى هو ضرب من الخيال، ولا يمت بصلة إلى التجربة الشخصية. وبقدر ما نتوغل في الرواية يتضح أن السارد يحمل اسم الكاتب " ماتيو سيمونيMathieu Simonet" مؤديا دورين متباينين: يستحضر، من جهة، حياته الشخصية مركزا على تجربته الإبداعية (تورطه في كتابة الرواية وانبهاره بالوقع الذي تخلفه لدى الآخرين) ومساره التعليمي والمهني (أنهى تعليمه الجامعي بكلية الحقوق ثم أصبح محاميا). وعلاقته الحميمة بأمه على وجه الخصوص.. وأضفى، من جهة أخرى، صبغة تخييلية على الأحداث المروية معتمدا على شهادات حقيقية أو مفترضة حول الأم خصوصا والموت عموما. وإن كانت موسومة بـ "**أثر الحياة**([4]Effet de la vie"، فهي تتلون بألوان اللحظة لبواعث متعددة. وهو ما يجعل الشهادة تكتسي إيحاءات مختلفة حسب طبيعة الظرف الذي أملاها وتحكم في زمامها. كما أنها لما تنتقل عبر الألسن تتعرض لتحويرات متعددة بحكم التصرف في لغتها ومحتواها. وهو ما حفز ميخائيل باختين، في المنحى نفسه، على إثارة " تأويلية اليومي" فيما يخص تناقل الأخبار بين الناس على نحو يجعل كل متكلم يتصرف فيما يتناهى إلى سمعه بالنظر إلى أغراضه ومآربه. وما يعزز هذا الكلام هو أن باسكال التي قدمت شهادات حية لابنها تعجبت لما وجدت نفسها أمام امرأة أخرى لا تشبهها إلا في خاصيات طفيفة. فما حُكي عنها مجرد توهمات وصور خادعة (يتعذر على اللغة، بتعبير رولاند بارث، نسخ الواقع). و ما يهم في أي محكي ذاتي ليس نقل الحقيقة بحذافيرها، وإنما طريقة عرضها والعصارة العاطفية التي تستمد منها نُسغها.

■ ■ ■ ■

في حالات حرجة، الذين يصرون، من خلال طلباتهم المتكررة، على الاستشفاء به. لا تُقدم لهم الإسعافات الضرورية فحسب، وإنما تزرع في أنفسهم جرعات إضافية من الأمل للاستمتاع بما تبقى من عمرهم. مُنع عنها التدخين ليس لتأثيره السلبي على جسدها فقط، وإنما لما يحمله من خطورة بتفجير الأكسجين المتوفر في غرفة الإنعاش. عاشت الأم أياما معدودات في المركز، ثم فارقت الحياة مخلفة وراءها أسرارا كثيرة تحتاج إلى مزيد من الوقت لافتضاضها وتبديد غموضها.

Mathieu
Simonet
La maternité
Seuil

الرواية، في مجملها، عبارة عن شذرات مختلفة استقاها السارد من أقلام أصحابها أو أفواههم. وقد حرص أحيانا على استجوابهم واستفسارهم حول قضايا معينة سعيا إلى فهم طبيعة العلاقة التي كانت تجمعهم بأمه، وحرصا على استجماع كثير من الشهادات والمعطيات التي تهم مسارها وتجربتها في الحياة وخاصة لما أنهكها مرض السرطان. يلجأ أحيانا إلى معاودة السؤال نفسه بصيغ مختلفة على فترات متباعدة. وهو ما يجعل الجواب يتلون بألوان الظروف المختلفة، ويصطبغ بأهواء شتى أملتها الحالات النفسية التي تعتري كل شخصية على حدة. تقصد السارد أن يعيد كتابة أقوال الآخرين كما هي محافظا على أصالتها الأسلوبية وشحنتها الدلالية. ولا يتدخل إلا للتعليق عليها، وإضافة معلومات جديدة إليها، وتبويبها حسب ترتيبها الزمني. ولم يخل التوليف من المفارقات الزمنية التي أفضت إلى تشابك الأزمنة وتداخلها، والإكثار، خصوصا، من الاسترجاعات المتماثلة حكائيا التي تروم التعريف أساسا بسوابق الأم، وسد ثقوب تخللت تجاربها في الحياة، والرجوع إلى آثار بعينها للتذكير بأهميتها، ومعاودة النظر إليها من زوايا مختلفة.

استعان السارد بتقنية اليوميات التي أسعفته على رصد اللحظات الصعبة والحرجة التي قاست منها الأم، واكتوى، هو أيضا بجمراتها. لقد حرص على استجلاء كل لحظة على حدة بما تحمله من مواقف انطلوجية ومشاعر إنسانية في غاية الرهافة والرقة. كان يعرف، من خلال تقارير الطبيب وتدهور صحة الأم، أنها تمر على جفن الردى. ولهذا ارتأى أن يقدر كل لحظة ويعطيها العناية المستحقة لعله يفلح في استجماع أكبر قدر من المعلومات عنها، ويضمد جراحها، ويشعرها بمكانتها في قلبه، ويساعدها على استرجاع ثقتها بنفسها.

يندرج هذا المشروع في إطار التخييل الذاتي[1] Autofiction. وينطبق عليه التعريف

جسدها، وبعثر أوراقها. وهو ما جعلها أكثر تشاؤما وتبرما من الحياة.

أضحى السارد، أكثر من أي وقت مضى، مهموما بالتفاصيل التي تهم مسار والديْه في الحياة. يريد أن يعرف عنهما أشياء كثيرة. وهذا ما حرضه على استفسارهما عن كثير من القضايا .. كيف تورطا في الحب أول مرة؟ ما موقفهما من الحياة والموت والزواج؟ كيف ينظران إلى الجسد بعد أن تفارقه الروح؟ ومن بين الأسئلة الحرجة التي وجهها السارد إلى والديه سؤال يهم ما أن راودتهما فكرة الانتحار في يوم من الأيام. جاء جواب الأم على النحو الآتي: «نعم حدث لي ذلك مرة في حياتي..كنت أسكن صحبة أختي زويzoé في زقاق لانونصياصيون.. غادرتِ المنزل لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في مكان آخر..كنت أشعر بألم حاد في أضراسي.. تناولتُ مسكنا.. لكنه لم يكن له أي أثر إيجابي...تناولتُ كل الأدوية المتوفرة لدي... سقطت مغمى علي.. من حسن الحظ عادت أختي إلى المنزل لاسترجاع ما نسته.. وجدتني جثة هامدة..أجريت تحليلات دقيقة، وخضعت لحصص العلاج النفسي.. ولما فتحت عيني، وجدت نفسي في عالم بديع.. كنت في شرفة مزدانة بالأزهار، وخمنت أنني في جنة". ومما استرجعه الأب عن محاولة انتحاره نورد ما يلي: " انتابتني فكرة الانتحار لما كانت لي علاقة مع "هاليسا"Halissa.عاينت أنها حامل بجنين في شهره الرابع أو الخامس. لم يغمض لي جفن خلال مدة الحمل.. صرخت في وجهها محرضا إياها على الإجهاض. شرعت أبحث عن رابطة عنق وعن مكان مناسب لشنق نفسي... لما وضعت رابطة العنق خمنت أن هاليسا لم تغادرني بل قصدت عيادة للإجهاض..تراجعت عن قراري، ثم واصلت كتابة الجزء الثاني من رواتي " **مانكو**" Manco التي ترصد، وإن كانت رديئة، نشأتي" ص/ص89-88.

وبقدر ما يتوغل مرض السرطان في جسد الأم بقدر ما تتوطد رغبتها في الحكي ويراودها شعور عارم بعدم تناول الأدوية حرصا على الرحيل عاجلا إلى العالم الآخر. ما يرعبها أساسا ليس الموت وإنما الألم الذي يعتصر أحشاءها ويهد كيانها. «ليست أمي خائفة من الموت. إنه مجرد سبات عميق. ما يخيفها هو مكابدتها للألم .. تعرف أن موتها وشيك لذلك لا ترى أي جدوى من استئناف حصص العلاج الكيميائي» ص/ص 65-64. ما يرعبها أيضا هو أن تجد نفسها محاصرة في مكان مغلق. وهذا ما جعلها تؤثر أن يعرض جثمانها على سطح منزل حتى تلتهمه الغربان عوض الديدان.

لما اطلعت الأم على ما كتبه ابنها عنها عاتبته على عدم ذكر كثير من المعطيات التي صدعت بها. وجدت نفسها أحيانا أمام امرأة لا تشبهها. وعندما تعاين مدى مطابقتها لها تشعر بسعادة عارمة. حفزته على مواصلة مشروع الكتابة معتزة بمؤهلاته وقدراته. ومن شدة إعجابها وافتتانها بعوالمه الخيالية حفزت طبيبها على الاطلاع على مدونته والاستمتاع بما تزخر به من محكيات ذاتية مفعمة بالمشاعر والأهواء المتضاربة.

مما أسهم في تدهور حالتها الصحية إلحاحُها على إدمان الخمر والتدخين، وعدم تناول الدواء.. بعد فترة انتظار طويلة وشاقة استجاب مركز «جون دروكا» Jean-Drucat لطلبها بعد شغور سرير. نظرا لقدرته الإستيعابية الضيقة(ست وثلاثون غرفة) يتعذر عليه استيعاب كل المرضى،

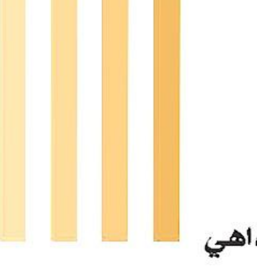
والآخرين، و فتح مسارب و شق قنوات حرصا على الإمساك بتلابيب الأضواء الهاربة والأحلام المنفلتة. شرع في كتابة رواية جديدة موسومة ب «**الكراسات البيضاء**» مدونا محكياته الذاتية التي تستوعب تجاربه وتأملاته في الحياة. وحفز والديه على الانخراط في مشروع الحكي لتسليط مزيد من الأضواء على الجوانب الداجية في حيواتهم المشتركة، وملء ثقوب الذاكرة، ومعاينة حدث معين من زوايا ورؤى مختلفة. استجابت والدته طوعا لطلبه، وأضحت، في أوج انفعالها وامتعاضها من المرض الذي توغل في جسدها، ترد على أسئلته بالبريد الالكتروني أو بتدوين شذرات من خواطرها أو حياتها في أوراق متفرقة. لم يستسغ الأب الانخراط في مشروع الحكي، لكنه تورط تدريجيا في شركه وهو يحترس من إثارة موضوع الاغتصاب الذي يُحتمل أن ابنه تعرض إليه؛ مما حرضه على ممارسة الشذوذ الجنسي بحسرة وألم شديدين. اعتاد الأب على التملص من الأسئلة الحرجة التي يوجهها له ابنه سعيا إلى الكشف عن حقائق مغفية. كان يداوم على قراءة مدونة ابنه حتى يكون على بينة مما يكتب، وعلى أهبة للتدخل في الوقت المناسب لنهيه عن النبش في ماضيهما المشترك الذي قد يكشف عما يحدث تصدعا في علاقتهما.

تقصد السارد أن يبئر معظم أحداث الرواية على الأم حرصا على بيان حالتها النفسية والانفعالية وهي تجتاز فترة عصيبة من عمرها، وعلى إعطائها الكلمة لاستحضار تجاربها في الحياة ومواقفها وأحاسيسها حيال الوجود. وقد اضطر، بهدف توريطها في فعل الحكي، إلى توجيه أسئلة محددة إليها وحفزها على الإجابة عنها. وأشرك، في هذا الصدد، كل من خالطتهم في الحياة(الأقارب، الطبيب، الممرضة، القسيس، المرضى...)، لملء فُرجات الذاكرة و بياضاتها، والإدلاء بمعلومات إضافية. كما كاتب مسؤولين من اختصاصات مختلفة لموافاته بآرائهم عن الموت (إزابيل بوزانصون عالمة نفسانية، ألتيز عراف، إزابيل بلونديو محللة نفسانية، دانيل لوكمبت طبيبة، أرنو قسيس، جون لوك محلل نفساني..). وهكذا اتخذت بنية الرواية صبغة حوارية مُشْرعة على احتمالات وتأويلات عديدة، ومشيدة على أرضية نصوص ومرجعيات فكرية مختلفة. التزم، خلالها السارد، بالكتابة الشذرية التي تلتقط الأخبار والانفعالات في صخبها وعنفوانها وتلقائيتها. وعمد، في الآن نفسه، إلى تذويب ملفوظات الآخرين في سبيكة السرد إلى حد يصعب فيه التمييز بين قول السارد وكلام الشخصيات.

سعى السارد، من خلال التفاتاته الرمزية والإنسانية، إلى الاقتراب من أمه والتغلغل أكثر في عوالمها، وفهم كثير من أسرارها المُلتبسة وأحلامها المحبطة. كانت تكثر من عتابه لكونه لم ينتبه إلى تدهور صحتها، ولم يبادر إلى نهيها عن معاقرة الخمر رغم ملازمة القنينة لسريرها.

تزوجت في ريعان شبابها، وبعد شهرين من الزواج انفصلت عن شريكها بسبب علاقته الشاذة مع بستاني بفندق المامونية في مدينة مراكش، وعدم قدرته على إحساسها بأنوثتها وتلبية رغباتها الجنسية. تزوجت، فيما بعد،شخصا آخر هو والد السارد. وبعد شهرين أيضا من قرانهما رحل إلى قُطر البيرو ثم عاد منه مجنونا. لما علمت أن ثديها مصاب بداء السرطان، أضحت الحياة، بالنسبة لها، جحيما لا يطاق. اجتاح الداء عظامها، وأنهك

تجربة الأم بين الوهم والحقيقة



محمد الداهي

يوحي عنوان الرواية *La maternité* في جوانب منه إلى " فن الأمومة". لكن الروائي ماتيو سيموني Simonet Mathieu استعمله للدلالة على المكان الذي قضت فيه والدته "باسكالPascale" أيامها الأخيرة (كان يسمى فيما قبل ب" مشفى الولادة"، وأصبح، فيما بعد، مركزا لمساعدة المرضى في حالات حرجة على استرجاع الأمل في الحياة). كانت، حينئذ، تعتصر ألما وهي تقاوم، بشجاعة وعناد نادرين، مرض السرطان الذي اكتسح جسدها مُرهصا بنهايتها الوشيكة. ويعتبر ماتيو سيموني(وهو محام بباريس) من الروائيين الشباب الذين لفتوا انتباه النقاد بقدراتهم على ابتداع طرق فنية جديدة لإعادة تشخيص الواقع. وبعد الصدى الذي خلفته روايته الأولى في الصحافة الفرنسية(**الكراسات البيضاء**، منشورات سوي 2010)، أصدر عمله الثاني (**مشفى الولادة**، منشورات سوي، 2012) الذي حاز على جائزة القراء المسلمة من مجلة «أكسبريس»، وحقق رقما قياسيا في مبيعاته.

ترصد الرواية ثلاثة مصائر متباينة في مناحيها ومساراتها، لكنها، في مجملها، تستمد نسغها من تجارب مشتركة مريرة وجراح غائرة وأليمة. وهو ما جعل كل مصير على حدة يتوجس من المستقبل، ويداري اللحظة الآنية، ويهيم في متاهة الماضي بحثا عن اجتثاث مخلفات الألم من منابتها. أصيبت الأم بمرض سرطان الثدي الذي اجتاح جسدها مرهصا بنهايتها الوشيكة. ويعاني الأب من اضطرابات نفسية حادة أودت به إلى حافة الجنون وهو ما جعله ميالا إلى العزلة والانطواء.. يجتر الابن (السارد) ذكريات أليمة تهم تعرضه إلى اغتصاب محتمل من لدن شخص مجهول يُرجح أن يكون هو والده.

وجد السارد في الحكي خير وسيلة للتخلص من ثقل الماضي الأليم، وتوطيد مصالحة مع الذات